الخطيب التبريزى حياته و أدبه (المبحث الثانى)

نادر نظام طهرانى*

الملخص

كان اسم الخطيب التبريزى يحيى بن على (۴۲۱ـ۵۰۲ ه) يترددفى المحافل الأدبية فى القرن الخامس الهجرى و لا زال، و قد شغلت شخصيته الذاتية والعلمية الرأى العام آنذاک لما تخللها من صفات مرضية حيناً و غير مرضية حينا آخر، تنطبع بطابع العصر الذى عاش فيه و تناق مع التيامه المنغمس فى اللهو أحيانا والعودة إلى الصراط المستقيم أحيانا أخرى، و هذا ما دعانى للبحث حول مجريات حياته المختلفة و ما دار حولها من أخبار و أقوال و ما تبعها من تهم و طعن و جهت إلى تلک الشخصية، مشوّقة إياها تارة و منافحة عنها تارة أخرى، كما بحث حول مكانته العلمية و رأى المؤرخين فيها، والمنزلة التى تبوأها فى عالم الآداب وصلته بنظام الملک مؤسس المدارس النظامية، و حامل لواء العلم والآداب فى ذلک الزمن.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

الكلمات الدليلية: الخطيب التبريزى، مكانته العلمية، نظام‌الملک، الخطيب البغدادى.

*. أستاذ بجامعة آزادالإسلامية فى جيرفت (استاد دانشگاه آزاد اسلامى ـ واحد جيرفت).

تاريخ الوصول: ۱۳۸۸/۱/۱۵ هـ . ش تاريخ القبول: ۱۳۸۸/٤/۱ هـ . ش

شخصية الخطيب الذاتية

إن دارسة شخصية أیّ أديب الذاتية والعلمية تحتاج إلى دراسة عوامل كثيرة التنوع بطبيعة الفرد و جبلَّته و استعداداته و نزعاته و محاسنه و مساوئه التى فطر عليها أو اكتسبها فى تكوينه الوراثى والعقلى والجسمى، وما يتمتع به من سلامة فى الجسم و قدرة على المقاومة، والاستعداد لتحمل الأعباء الجسمية.

كما تعتبر البيئة التى يعيش فيها الأديب المؤثر المهم الثانى الذى يحدد معالم هذه الشخصية. فالمكان والزمان اللذان ولد فيهما و حالة العصر والوطن من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، و من كانوا رفاق صباه و أخدان شبابه، و مقدار الثروة العلمية والثافية والفكرية التى اكتسبها، والأوساط الخاصة التى امتزج بها، والرحلات التى قام بها، والمحافل الأدبية التى تعرف عليها، كل ذلک بوتقة تتكون فيها شخصية الأديب و تصاغ و فى تقلبات فصولها تنضج، و فى ضلالها تعطى ثمارها التى حملتها حلوة كانت أو مرة.

والتاريخ الأدبى أغفل للأسف ذكر البيت الذى ولى فيه الخطيب، والحى الذى ترعرع فيه، و لم يذكر لنا شيئاً عن نشأته الأولى، و رفاق الصبا، و كيف قضى أول سنين حياته التى تعتبر ذات أهمية كبيرة فى تكوين بذرة شخصيته. ولكننى أستطيع أن أتخيل هذه الطفولة، و استنبطها من طيات أخبار شبابه، فحمله كتاب تهذيب اللغة على ظهره، و سيره من تبريز إلى المعرة، يدلنا على أن هذا الإنسان عاش فى بيت بسيط بين أبوين متوسطى الحال يخلو من ثمرات العلم؛ ذلک أن الخطيب كما يظهر كان منذ أوائل حياته و عنفوان شبابه يعمل فى الدراسة والتحقيق، ولو لم يكن فى بيت يهيىء له أسباب العلم، و يفتح له طريق المعرفة، لما استطاع أن يضمن لنفسه هذا الجو العلمى. و مما لا شک فيه أن ذلک الشاب كان يتمتع بجسم سليم و قدرة على تحمل المشاق. ذلک أن الذى يقطع طريقاً طويلة تبدأ من تبريز و تنتهى بمعرة النعمان و هو يحمل على ظهره عدداً من المجلدات، لابد أن يكون ذا قوة بدنية و استطاعة و جلد.

و كان الخطيب أيضاً «ذا صورة بهيّة» (ابن عساكر، لاتا، ج ۱۸، ص ۲/۸۸) و وجه صبوح.

و قد عاش فى أول حياته «فقيراً محتاجاً» (حسين، ١٩٦٥م، ص ٥٧٦)، يجوس فى دنيا العلم والمعرفة حتى إذا بلغ مراده، و تفتحت أمامه أبوابالسعادة والغنى، و راجت بضاعته، و زاد الإقبال عليه «لبس الحرير والسقلاطون والعمايم المذهبة» (ابن شهبة، لاتا، ص ٥٣١) و انغمس فى اللذائذ يعب منها من يستطيع، فقد «ذكر أبوسعدبن السمعائى فى ذيله و كتابالأنساب... قال: سمعت أبا منصور محمدبن عبدالملک الحسنبن خيرون المقرّى يذكر عن الخطيب التبريزى أنه ما كان بمرضى الطريقة و ذكر عنه أشياء» (ابن خلكان، ١٢٨٤ق، ص ٣٧٦) «و جاء فى المنتظم فى تاريخالملوک والأمم» و قال شيخنا أبومنصور ابن خيرون: «ما كان أبوزكريا بمرضى الطريقة». و يضيف ياقوت الحموى نقلا عنالسمعانى أيضاً أن الخطيب «كان يدمن شربالخمر و يلبس الحرير والعمامة المذهبة، و كانالناس يقرؤون عليه تصانيفه و هو سكران، فذاكر أبا الفضل محمدبن ناصر الحافظ بما ذكره ابن خيرون فسكت و كأنه لم ينكر ذلک» (الحموى، لاتا، ج ٢٠، ص ٢٦) فالخطيب إذن كان يعب منالخمر الكثير، و يلقى دروسه و هو سكران، كما كان «أكولا نهماً شرهاً» و «يأكل فى مجلس واحد (والعهدة علىالراوى) عشرة أرطال خبز و ما يتبعها منالأدم» (ابن شهبة، لاتا، ص ٥٣١) و نحن هنا لابد أن نتساءل، ماالذى دفع الخطيب إلى هذا السلوک، و ما الذى رماه فى أحضان هذه السيرة؟ هل هوالمال والجمال والجدة، لقد توفر المال والجمال للخطيب إلا أن الجدة هذه لا يمكن الجزم بها، فالخطيب كان دائم البحث والعمل والجد. ثم كيف سكت أهل عصره و كبارالقوم على سلوكه هذا، و هل كان بالإمكان لنظام الملک، و هو ما كان عليه من شأن و علو مكانة و سلطة أن يدفع إلى الخطيب بأبنائه لتعليمهم و تثقيفهم، كما أخبرنا بذلک السبطبن الجوزى بقوله «و كان نظامالملک يعظمه و شغل أولاده بالأدب عليه» (ابن الجوزى، لاتا، ج ١٢، ص ٢٦٦). أقول: هل كان لنظام الملک أن يفعل هذه لولا أن ما قيل فى الخطيب مبالغ فيه أو أنه كان نموذجاً لسيرة عصره و بيئته. صحيح أن الخطيب كان يشرب الخمر و لا يظهر إلا سكران، و صحيح أن هذه الظاهرة و هذا العمل يدعوان إلى القول: إن صاحبهما ما كان بمرضى الطريقة، إلا أن ما تركه لنا القرن الخامس من أخبار، و ما نقلته

كتب تاريخ‌الأدب من وصف لمجالس الحكام و اللهو والطرب. و ما طبع به ذلک‌الوقت من طابع الترف والبذخ حتى دعى بعصر القيان والغلمان، كل ذلک يدعونا للقول: إن الخطيب كان صورة للحياة الاجتماعية التى عاش فيها، كما أن لبسه الحرير والسقلاطون والعمائم المذهبة لا يخرج عن هذه الحدود. ولست هنا بمعرض الدفاع عن الخطيب، و إنما هى حقيقة، لابد من تقريرها،و واقع لابد من‌الاعتراف به، و هى أن الخطيب رغم هذه الرواية التى ذكرها المعانى و تواردت عليها المصادر الأدبية والتاريخية و نقلتها بالحرف أو اقتطفت منها، لابد من‌القول إن الخطيب كان يتمتع بكثير من‌الصفات الطيبة، فقد كان ثقة فى علمه، عطوفاً يمتلک قلباً حساساً يخفق بالحنان، فقد جاء على لسان الوطواط فى غرر خصائصه أثناء حديثه عن خبر مجيء أحد أقرباء الخطيب من بلده تبريز إلى المعرفة لمقابلته، قوله: «فلما جاء التبريزى أخبر أن رجلاً جاء من تبريز و معه رسالة من أهلک، فقال: ليتكم منه، فإنى مشوق لما يرد فى أخبارهم» (حسين، ١٩٦٥م، ص ٤٠٢)، و هو شوق يدل على العاطفة التى كان الخطيب يكنها فى قلبته الرقيق نحو أهله. والحنان الذى يضطرم فى جوانبه لسماع أخبارهم.

كما كان عفيف النفس، فهو حينما قدم إلى أبى العلاء، أبى على نفسه أن ينال منه العلم دون أن يقدم له قيمة ألقابه، فناوله صرة من الذهب لم يكن يمكل غيرها، رغم أن أبا العلاء كان ينفق على عدد من تلاميذه و طلابه من ماله‌الخاص، و هو ما أخبرنا به‌التبريزى نفسه قائلاً: «كان المعرى يجرى رزقاً على جماعة ممن كان يقرأ عليه، و يتردد لأجل الأدب عليه» (المصدر نفسه، ص ٥٧٥)، و حينما رد إليه أبوالعلاء العمرةبعد انتهاء دراسة، تناولها منه بعد إباء قائلاً: «ما ظننت أنک تفعل هذا ولا أردت التثقيل عليک بغير الاستفادة من علمک، و عرض له بأخذه» (المصدر نفسه، ص ٥٧٦).

و لم يفعل المؤرخون والأدباء أيضاً لا إشارة إلى عقيدته، فقد جاء فى أكثر المصادر أن الخطيب كان «مخلطاً فى دينه و لعبه بلسانه» (ابن نقطة، لاتا، ص ٤٢٣؛ ابن ماكوک، لاتا، ج ١، ص ٥٤٤؛ ابن شهبة، لاتا، ص ٥٣١)، و لا ندرى كنه هذا التخليط واللعب و هل يتجاوز اللسان إلى القلب أو أنه عميق فى نفسه و روحه، و قد وجدت رواية تقول:

«حكى لنا عن أبى زكيا أنه قال: قال لى المعرى: ما الذى تعتقد؟ فقلت فى نفسى: اليوم أعرف اعتقاده، فقلت: ما أنا إلا شاک! فقال: هكذا شيخک» (حسين، ١٩٦٥م، صص ٦٩ـ٧٧ـ١٤٤ـ٢٦٨ـ٢٨٩)، و هى رواية لا يمكن أن تكون مستمسكا على الخطيب أو حجة تدينةبشكل قاطع، فالخطيب كما يبدو لم يكن جادا فى قوله «ما أنا إلاشاک» و إنما أراد فقط أن يقع على رأى و عقيدة شيخه أبى العلاء، و قد كنت أتمنى لو أجد أكثر من هذهالرواية لأصل إلى الحقيقة، ذلک أن الطعن فى الدين أمر لا يلقى على غاربه دون تمحيص و تدقيق، و إن كانت العادة فى العصر العباسى بإلصاق تهمة الشک والزندقة جزافاً، و ميل الخلفاء والحكام لإلصاقها بخصومهم للقضاء عليهم.

و قد يكون انغماس الخطيب فى الخمرة و لبسه العمائم المذهبة والحرير هوالسبب فى اتهامه بعقيدته، فقد جاء فى دائرة المعارف الفارسية: «وى به خوش پوشى، شادخوارى و بادەنوشى شهرت داشته است، و از اين جهت، متشرعان در حق او نيز مانند استادش أبوالعلاء معرى طعن ميكردەاند» (مصاحب، ج ١، باب خ) (أى أنه اشتهر بارتداء فاخر اللباس و معاقرة الخمرة و لذا طعن المشرعون به كأستاذه أبى العلاء المعرى)، و هذا لا يكفى أيضاً لطعنه فى دينه و عقيدته، و يظهر أن أهل عصره لم ينظروا إلى هذا الأمر نظرة جديدة، ذلک أنهم كانوا يعتبرونه حجة فىالحديث والفقه، و قد نقلوا عنه الكثير منالأحاديث، كما حاولوا هم أنفسهم نفى التهمة عنه، فقد ورد فى نفس المصادر التى تحدثت عن تخليطه فى دينه و لعبه بلسانه، أنه تاب من ذلک، فقد نقل ابن شهبة فى طبقات النحاة واللغويين قوله: «قيل إنه تاب بلسانه، و قيل إنه تاب من ذلک» (ابن شهبة، لاتا، ص ٥٣٠) و هو نفس ما ذكر فى الإكمال لعلىبن هبةالله (ابن ماكوک، ج ٢، ص ٩٦)، و هى شهادة تحمل فى طياتها نوعاً منالشک. كما جاء فى كتاب ذيل سياستنامه خواجه نظامالملک «أن نظامالملک حينما وقف على حاله (أى حالالخطيب) و إنه يشرب فى كل ليلة،ضاعف له يوميته و شهريته، فشعر الشيخ ابوزكريا بالخجل، و تاب توبة نصوحا. و لم يعد يقدم بذلک العمل فيما بعد» (شرح حال خواجه نظام، ١٨٩٧م، ص ٦)، فهل حقاً ترک الخطيب الشرب فيما بعد و تاب توبة نصوحاً أو إنه ظل يشرب فى الخفاء؟ لقد

حاول أهل عصره أن يبرئوه حتى بعد وفاته: فقد ذكر فی مرآةالزمان لابن الجوزی قوله «ورآه ابن الجواليقی فی المنام فقال: ما فعلالله بک؟ فقال: غفر لی بتصنيف القرآن». (ابنالجوزی، لاتا، ج ۱۲، حوادث سنة ۵۰۲، ص ۲۶۶)

شخصيةالخطيب العلمية

يقولالعميد الفياض فی مدحالخطيب التبريزی:

إنک الأصلُ و مَن دو نَکَ فـی العلم غصونُ

و لم يتقصر تنجيد الخطيب علىالشعرفقد نقل عن كثير من أعلام الأدب و مؤرخيه عبارات نثرية فی بيان علو شأنه العلمی يقول ياقوتالحموی فی معجمه إنه «أحدالأئمة فی النحو واللغة والأدب،حجة صدوقاً ثبتاً... ثقة فی اللغة و ما كان يرويه و ينقله» (الحموی، لاتا، ج ۲، صص ۲۵ـ۲۶) «و كان نظامالملک يعظمه و شغل أولاده بالأدب عليه» (ابن الجوزی، لاتا، ج ۱۲، ۲۶۶)

«إليه الرئاسة فی اللغة والأدب و سار ذكره فیالآفاق» (الحموی، لاتا، صص ۲۵ـ۲۶)، و لا شک فی أن المكانة التی تبوأها الخطيب فی تلک العلوم والآداب إنما حصلت له نتيجة ما قرأ و طالع و درس و صنف و شرح و لمن يكتف بحفظ ما اكتسب بل أكب على الجمع والتمحيص والإضافة إليه و تقديمه لعشاق الأدب والعلم سهل التناول كامل الفن والإبداع.

والأهم من هذا اشتهار الخطيب بدقته العلمية و بحثه عن حقيقة ما يطالعه و اشغال الفكر فی دقائق المعلومات، و عدمالقبول بما يعرض له دون إقامة الدليل المنطقی والعلمی. و لعل هذا هوالذی حمله لقطع البلدان إلى أبی العلاء من أجل دراسة كتاب التهذيب و غيره. و كان يستزيد منالعلم، كالبحر لا يملئ غاريه مهما ردفه من أنهر و جداول. و منالروايات التی ذكرت عن دقته العلمية ما أورده القفطی فی إنباه الرواة على إنباه النحاة أن الخطيب التبريزی بعد أن قرأ كتاب إصلاح المنطق على أبی العلاء «طالبه بسنده متصلاً، فقال له أبوالعلاء: إن أردت الدراية فخذ عنی و لا تتعد و إن قصدت

الرواية الرواية فعليک بما عند غيرى» (حسين، ۱۹۶۵م، ص ۵۱)

الخطيب كان يقف على مكانة المعرّى العلمية طالبه بسند ما قرأ عليه،و هذا غايةفى الدقة العلمية التى يجب أن يتحلى بهاالعلماء.

كما كان مدققا فيما يقرأ ناقداً له،يناقش الأمور بالعقل ولاحجة فقد ورد فى لسان الميزان لابن حجر أن أبازكريا التبريزى قال: «لما قرأت على أبى العلاء بالمعرة قوله:

يدٌ بخمسٍ مئين عَسجَدٍ وديت ما بالها قُطعت فى رُبعِ دينارِ

تناقضٌ ما لنا إلا السكوت له و أن نَعوذَ بمولانا منالنارِ

سألته عن معناه فقال: هذا مثل قول الفقهاء «عبارة لا يعقل معناها» لو أراد ذلک لقال: «تعبُّدٌ ما لنا إلا السكوتُ له» و لما اعترض علىالله بالبيتالثانى.

هذه الصفات العلمية و غيرها هىالتى كونت للخطيب مكانة علمية بين أهل عصره و علمائه، و هى التى دعت أمثال الخطيب البغدادى و هوالعالم الجليل الذى كان يكبرالخطيب بثلاثين سنة (مصاحب، لاتا، ج ۴، ص ۵۶۹) إلى أن يعظمه و يروى عنه، و يستند إلى رأيه فى اللغة. جاء فى تاريخ دمشق للسماع من أبى بكرالخطيب، و حضر أبوزكريا التبريزى، و كان ذا صورة بهية فحدث الخطيب (البغدادى) ببعض كتب أبى عبيد فجاءت كلمة عربية غريبة، فقرها الخطيب على الصواب، ثم التفت إلى زكريا (أبى زكريا) فقال: أليست هكذا: فقال أبوزكريا: بلى يا سيدنا، الله الله!!، يعنى أنک لا تحتاج أن تسأل.» (ابن عساكر، لاتا، ج ۱۸، ص ۲/۸۸)

هذه المكانة العلمية هى ولا شک دعت نظامالملک تقديره و احترامه و تعيينه أستاذاً فى المدرسة النظامية «فخرالإسلام» (ابن شهبة، لاتا، ص ۵۳)، يدرس فيها الأدب حتى دعى بـ «شيخ بغداد فىالأدب» (ابن الجوزى، لاتا، ج ۳، ص ۱۷۲).

النتيجة

هكذا يمكن القول إن شخصية الخطيب الذاتيةشهدت نوعاً منالانحراف، و لكنه انحراف مؤقت، ذلک أن أول من روى أنه لم يكن مرضى الطريقة، هو أبو ابن السمعانى

ثم تبعه فی ذلک بقیة المؤرخین یزیدون علی الروایة و ینقصون. ولکن توبته بعد أن ضاعف له نظام‌الملک یومیته و شهریته کانت کما ذکر المؤرخون توبة نصوحا، و لذا فنحن نمیل إلی القول بأن المؤرخین بعد ابن السمعانی بالغوا فی توجیه التهم للخطیب و لم ینصفوه، خاصة و أن نظام‌الملک دفع بأولاده إلیه لتعلیمهم و تهذیبهم، کما إن الطعن بعقیدة الخطیب بالاعتماد علی خبر أراد أن یختبر به عقیدة شیخه لا یستذ إلی حقائق ثابتة.

أما شخصیة الخطیب العلمیة فلم یشبها شائبة، و قد أجمعت کل‌المصادر علی علو شأنه الأدبی واللغوی، و أنه کان موضع ثقة و أمانة، و دعة علمیة عالیة.

المصادر والمراجع

ابن الجوزی. لاتا. *مرآة الزمان*. ج ۱۲ (نسخة مصدرة فی مکتبة المجمع بدمشق تحت رقم ۹۹).

ابن خلکان. ۱۲۸۴ هـ. *وفیات الأعیان*. ط طهران.

ابن شهبة. لاتا. *طبقات النحاة واللغویین* (مخطوط الظاهریة بدمشق تحت رقم ۳۴۶۸).

ابن عساکر. لاتا. *تاریخ دمشق* (مخطوط الظاهریة بدمشق).

ابن ماکوک، علی‌بن هبةالله. لاتا. *الإکمال*. ج ۱. ط الهند.

ابن نقطه. لاتا. *الاستدراک* (مخطوط الظاهریة بدمشق تحت رقم: ح ۴۲۳).

ابن‌الجوزی. ۱۳۵۹ هـ. *المنتظم فی تاریخ الملوک والأمم*. ط حیدر آباد الدکن.

حسین، طه. ۱۹۶۵م. *تعریف القدماء بأبی العلاء*. ط القاهرة.

حسین، محمد بک. ۱۲۹۶م. *الحماسة*. شرح‌الخطیب التبریزی. ط مصر. دائرةالمعارف الإسلامیة. ط مصر.

الحموی. لاتا. *معجم‌الأدباء*. ط مصر.

السیوطی، جلال‌الدین. ۱۳۲۶ هـ. *بغیةالوعاة*. ط القاهرة.

فرانسوی، السفر. ۱۸۹۷م. *شرح حال خواجه نظام‌الملک*. ط انجی.

مصاحب، غلامحسین. لاتا. *دائرةالمعارف الفارسیة*. ج ۱. لا ط.